ترجمة وتحليل :

١ - أمنية الشاعر !

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

... أما الشاعر فإنه مفخرة الأدب الفرنسي « الفونس دي لامرتين » ، وأما الأمنية فإنها قصيدة عصرها من حبة قلبه ، فكانت زفرة حرّى تحترق بلهيبها عبرات الذواقين لهذا النوع من الشعر المثالي الرفيع .

وهذه الأمنية تصوير دقيق لما يجيش في نفس الشاعر المرهف الحس الذي لا ينى يعبر بشعره عن الآفاق التي يدرك عظمتها ولا يصل إليها مهما بذل من الجهد ، وعن العوالم التي يحس روعتها ولا يبلغها مهما ارتقى في الأسباب .

نظم لامرتين هذه القصيدة - كما حدث عن نفسه - « في فترة من حياته تحولت فيها فكرته - التي كانت لا تتوخى غاية ، ولا تعين أمنية ، ولا تعنى بهذه الأرض ومن عليها - تحولا طبيعياً منتظراً نحو السماء وبانيها ، ونحو الطبيعة وبارئها ، فأمست أناشيده كلها دينية . يومئذ عرف أرواحاً كانت تقواها ثمرة دموعها ، وعرف أرواحاً أخر كانت عبادتها كأريج الربيع الفواح تحت أضواء الشمس المشرقة التي تمتع القلب بالبشر والسرور . ولقد أحب أن تكون روحه من هذه الأرواح الأخر .

حطم الألم أعصابه ، ورده صامتاً لا يبين ، جاحداً لا يؤمن ، يائساً لا ينتج . ثم أقبلت عليه السعادة بعد إدبار ، فحببت إليه الإيمان وزينت في قلبه ألحانه ، فعاد ناعم الفكر ، رخي البال (*)

في تلك الفترة التي عاد فيها إلى إيمانه أو عاد إليه إيمانه نظم قصيدته في مدينة من مدن إيطاليا تسمى (ليفورن) (Livourne) سنة ١٨٢٧ . ولست أدري ما الذي يربط قلبي بقلب لامرتين ، فما تأملت إحدى قصائده إلا أحسست كأنه ينظمها بلساني أو أنثرها عن لسانه ، أو يكتبها من لوحة قلبي وأتلوها في لوحة قلبه ؛ وما أريد بهذه الكلمة أن أعلو بنفسي إلى أفق هذا الشاعر العظيم في روعة تصويره ، وسحر خياله ، فما ينبغي لي هذا ولا أستطيعه ؛ إن أريد إلا أن أتيح لقلمي بعض العذر في ترجمة قصائده وتحليلها كلما وجدت فراغاً ، وآنست رغبة .

(*) Harmonies Poétiques et Religieuses p 302

لم يبح لامرتين لنفسه تصوير أمنيته إلا بعد أن أعلن عجزه ، واعترف بهي لسانه : فشعوره أسمى من أن يترجم عنه ما تيسر له من الكلمات المحدودة ، وتفكيره أعلى من أن يذيعه لسانه العيي الذي لا يحسن الابتكار والتوليد .

١ - « آه ! لو كانت لي كلمات وصور ورموز
لترجمتُ عن شعوري !
ولو كان لساني العيي قادراً على التعبير
لأداع تفكيري ! »

أما وقد أبت الكلمات الحية ، والصور الناطقة ، والرموز الموضحة ، أن تواتيه وتكون مطواعاً لقلبه ولسانه - فليس أمامه إلا سلوك النهج الذي سلكه الشعراء من قبله - وسوف يسلكونه من بعده - فليمثل مثول الخاشع الخاضع بين يدي السماء ، وليصف حكمتها بأرفع ما يجري به لسانه من آي المديح والثناء ؛ فالتقديس لها ، والسرمدية عنها ، والأزلية منها ، لأنها ما أخرجت من ظلمات العدم شيئاً إلا أدخلت عليه نور الحياة ، ولا أبدعت للوجود كائناً إلا علمته لحناً ينشده فيطرب ، ولا بثّت في السقف المرفوع كوكباً إلا أنزلت عليه وحياً يتلوه فيرضى ، ولا حددت للمسافات موضعاً إلا جعلت له مغنى تصدح بلابله فيشجي السامعون . .

٢ - « إنها لحكمة قدسية سرمدية وروح أزلية ،
تُمد العالم كله بالحياة !
فللكلّ كائن لحنه ، وللكل كوكب وحيُه ،
ولكل موضع مغناه ! »

ويمضي لامرتين في تأمله فيرى أن يتبوع هذه الأنغام كلها نغم واحد ، ولكنه ليس عادياً توقعه أنامل العادين ثم يفتر بفتورهم ، ولا عبقرياً تتلاعب به قلوب المباقرة فيختنق بموتهم ؛ وإنما هو نغم خالد لا يفتر ، قديم لم يتغير ، أزلي لن يختنق . أخذ من عيون الطبيعة سحراً يسبي القلوب ، ومن وقارها هيبة تأسر النفوس ، ومن خلاقها العظيم رهبة تعجز العقول . ومع أن جرْس هذا النغم رتيب لا يتبدل فإنه حلو في الإسماع كلما تكرر ازداد حلاوة .

٣ - « ما لهؤلاء إلا نغم واحد ، ولكنه كالطبيعة ساحر مهيب ،
وكخلاقها عظيم ذو جلال !
وإن هذا النغم الخالد ، بجرسه الرتيب ،
لمحبوب يا إلهي في كل مجال ! »

وكيف لا يكون هذا النغم محبوباً وهو موسيقى مختلفة الإيقاع ؟ فمنه صوت الرياح إذا هبت تداعب الأمواج ، وصوت البحر إذا تنهد شوقاً أو زمجر ضجراً ، وصوت الصاعقة إذا توعدت انذاراً ، ودوت غضباً . . وهل من غبي بين البشر لا يعرف ماذا تعني هذه الأصوات ؟

٤ — « فإذا الرياح هبت على الأمواج ، وإذا البحر تنهد أو زمجر ،
وإذ الصـــاعقة قدمت بالوعيد ...
ليت شـــعري ، هـــل من غبي بين البشر ،
يســـأل عمـا تريد ؟ ؟ . . . »

كلا ... لن يسأل عن مرادها سائل ، فإنها تفصح بلسان مبين عن كل ما ترمو : فما مداعبة الرياح للأمواج ، وما تنهد البحر وزمجرته ، ولا دوى الصاعقة ووعيدها ، إلا مظاهر من رحمة الله وقهره ، تتجلى تارة في جلاله وقدرته وفضله ، وتارة في غضبه وانتقامه وعدله . ولو سألت الرياح عن أغانيها ، والبحار عن تأوهها وأنينها ، والصواعق عن إنذارها ووعيدها ، لقالت : إنها تسبح بحمد الله ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ؛ ولتداعت إلى الفرار إذا ذر شارق من نور وجهه ، أو لاح بارق من نور ظله ؛ ولتنادت إلى السكوت ، واجتمعت على الإصغاء ، وائتلفت لسماع النغم الوحيد الذي يرسله من لدنه ليملأ الدنيا ألحاناً وأغاريد !

٥ — « قال قائل منها : يا لجلال الله ! وقال ثانيها : يا لقدرته وفضله !
وقال آخرها : يا لغضبه وانتقامـــه !
ثم ولى أحدها هارباً من إشراق وجهه ، وقال آخر : قد لاح بظله !
أيتها السموات والأرض أصيخي لكلامه ! »

بيد أن الفرق واضح بين الإنسان وهذه الطبيعة ، فإن هذه تنطق بلسان الحال فيغنيها عن لسان المقال ، وذاك أوتي لسان المقال ليعبر عن لسان الحال ، ومقاله متوقف على الألفاظ ، وما الألفاظ إلا قوالب للمعاني لا تنبض بالحياة ، ولا جناح لها فتحلق في الأجواء ، أو تنطلق في الآفاق ، كهذه الطيور التي تهيم في كل مكان ، وتحط على كل شجرة ، وتهبط كل واد ، وتعلو كل جبل ، وترى كل شيء . ولئن كانت فكرة الإنسان خالدة لا تموت — لأن موحيها الحي القيوم كتب لها الحياة — فإن ألفاظه المعبرة عنها لأصداء ترجع الأصوات ، وما كان لصدى أن يدوم ، فلا بد لبلبت أن يزول .

٦ — « لكن الإنسان الذي خلقته ، هذا الذي يفهم الطبيعة ،
لا يتهدى بغير الألفاظ إلى المعاني الرفيعة ؛
« وإن ألفاظاً فاقدة الحياة مهيضة الجناح ، إذا قيست بفكرته التي لا تموت
كانت أصـــداء وشيكة الســـكوت ! »

مسكين هذا الإنسان الذي ينشد الحقيقة فلا يظفر إلا بصداها ، ويروم الانطلاق من سجنه والتفلت من قيده ، فيضرب بينه وبين رغبته بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب : فمثله كمثل العاصفة يحدق بها الغمام من كل جانب ؛ ويطبق عليها من كل مكان تعانده فيضحك ، وتحاول تمزيقه فيبتسم ، وتود لو انفجرت لتفارقه فيصفح عنها لتلازمه ، فلا هو يتارك لها منفذاً ، ولا هي بقادرة على الفرار . أو كالموجة محبوسة في هذا البحر العميق تود لو رأت عالماً سواه ، إلا أن الشاطىء يقف في طريقها سداً منيعاً ، فتثور في وجهه فتلطمه لتتغلب عليه فلا ينزحزح ، وتهدأ ثائرتها فتغسل قدميه لتسترضيه فلا يبالي ، وتعيد الكرة من غير أن تصيب نجاحاً ، فتيأس من العلو عليه ، وتقنع بسجنها قناعة العاجز الساخط ، لا قناعة الراضي المقتدر .

٧ — « روحـه كالعاصـــفة . . . في الغمام تزمجر ،
ولا تســـتطيع أن تنفجـــر
أو كالموجـــة الحبيسة تلطم الشـــاطىء وتجلوه ،
ولا تســـتطيع أن تعلوه ! »

والملوم على كل حال روح الإنسان لا ملهمها ، لأن هذه الروح مغرورة تحاول أن تجتاز الحد الذي وضع لها ، فيدركها التعب ، ويسرع إليها الضنى : تريد أن تبرهن على قوتها وهي ضعيفة ، وعلى علمها وهي جاهلة ، وعلى مقدرتها وهي عاجزة ؛ فهي كهذا النسر الصغير الذي لم ينبت ريشه بعد ، يريد أن يطير كما تطير النسور ، ويريد أن يسابقها منذ تفتحت عينه على عالم النور ، ولكنه يتبين ضعفه فيقنع نفسه بالوثوب على الأرض ، ثم يتبين عجزه فإذا هو قانع بالترفق في دبيبه ، يمشي مشية الحذر ، ويبطىء إبطاء الذي يزحف شاكاً مستريباً .

٨ — « وتتعب نفسها وتضنيها كأنها نسر صغير ،
لم ينبت له بعـد شـكير
تتفتح عينـه على عالمه ، فيـترفق في الدبيب ،
ترفق الزاحف المستريب ! »

(التتمة في العدد القادم)

صبحي ابراهيم الصالح